

الدلالات المقامية للتصوير البياني في سورة هود

The connotations of the graphic representation in Surat Hood

✉ ابن شتوح عامر²

am.benchettouh@lagh-univ.dz

✉ زيوش عبد الرحمان¹

a.zioueche@lagh-univ.dz

مخبر اللسانيات التقابلية وخصائص اللغات .

جامعة عمارثليجي بالأغواط / الجزائر

تاريخ النشر: 2022/01/23

تاريخ القبول: 2022/01/10

تاريخ الاستلام: 2021/10/30

ABSTRACT:

مَلْجُزُ الْبَحْثِ

This article deals with the graphic representation in Surat Hood – peace be upon him – by clarifying the emphatic connotations of simile , metaphor , sent metaphor , mental metaphor , and metonymy . what the addressee wants from his recipient by way of specification .

Keywords: makam, position , addressee , photography , hood.

يتناول هذا المقال التصوير البياني في سورة هود . عليه السّلام . من خلال بيان الدلالات المقامية للتشبيه، الاستعارة، المجاز المرسل، المجاز العقلي والكناية، فسورة هود . عليه السّلام . قد امتلأت بهذا التصوير الفني العظيم، الذي يختار على حسب المواقف والمقامات، لتناسب مع ما يريده المخاطب من متلقيه على سبيل التحديد : فالمقام له أثره الواضح في اختيار صورة فنية دون أخرى . الكلمات المفتاحية : مقام، موقف، مخاطب، تصوير، هود .

مجلة لغة – كلام / مختبر اللغة والتواصل / جامعة غليزان (الجزائر)

¹ المؤلف المرسل: زيوش عبد الرحمان

1. مقدمة:

التصوير الفني في القرآن الكريم ذو أبعاد متكاملة تتضافر في تحقيقه أمور شتى، منها : اللفظ ، والجمله، والفاصلة، " والتصوير ملمح أساسي في النص القرآني يتضافر في تحقيقه اللفظ برنينه الصوتي، والجمله بتراكيبها المتنوعة وبنغماتها الداخلية، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظي، والسِّيَاق العام، والمشهد الحيّ بتكريس التصوير فيه إلى التجسيد الحيّ حركة وتأثيراً ...، بل إنّه ليتفرّق عذب الإيقاع من آيات الأحكام والتشريع ...، وهذه المنظومة لجماليات التصوير تتوالى في سياق دلالي، فتعطي للمعنى عمقا، ولهدف الدِّيني نفاذاً إلى أعماق النفس البشرية فتَهْزأُ هزّاً " (1).

والتصوير البياني هو ذلك التصوير الذي يعتمد على الصّور البيانية المعروفة في علم البيان من تشبيه، واستعارة، ومجاز مرسل، وكناية ...، وقد ظهرت بكافة أنواعها في سورة هود . عليه السّلام . نتناولها على النحو الآتي :

2. التشبيه ودلالته المقامية :

تعريفات التشبيه لا تكاد تحصى عدداً، وإن كانت رغم كثرتها تلتقي جميعها في نقطة واحدة، أو تكاد تلتقي، وهي مشاركة المشبه للمشبه به في صفة أو أكثر، من هذه التعريفات ما أورده ابن رشيق القيرواني في (العمدة)، وما أورده القزويني في (الإيضاح) :

" التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه كليّة لكان إيّاه " (2).

ومن الأمثلة الواردة للتشبيه في سورة هود . عليه السّلام . قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّن الْأَحْزَابِ فَلَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) ، هذا تشبيه قصد به الإقرار بالقرآن الكريم، حيث جاء قبل ذكر الأنبياء كأنّ التوراة إمام في ذكر الهالكين، وإمام في ذكر قصص النبيّين، وإمام في التبشير بمحمّد . صلّى الله عليه وسلّم .، وهذه إمامة معنوية تشبه الإمامة الحسيّة، ولا يعرف كتاب قبل التوراة يحوي قصص النبيّين ولا الهالكين، فكأنّ التوراة إمام في هذا الشأن، ومن أقرّ بإمامة كتاب موسى . عليه السّلام .، لزمه الإقرار بإمامة القرآن الكريم، قال ابن كثير : " أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقُدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حقّ الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾، ثم قال تعالى متوعّداً من كذب بالقرآن العظيم، أو بشيء منه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ﴾ " (4)

والمتملّ في الآية الكريمة يرى أنّ وجه الشبه بين كتاب موسى والإمام هو الاقتداء والسبق، إذ يُقتدى بالتوراة كما يُقتدى بالإمام . أمّا الغرض منه : فهو بيان حال كتاب موسى . عليه السّلام . في

أتباعه، والمراد بذلك الإلزام بأمة القرآن الكريم .

وقد جاء هذا التشبيه في جملة بنيت على اللَّف والنشر المرتَّب ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ... ﴾ كمن ليس كذلك، فيكون أولئك يؤمنون به " راجعا لمن في قوله : أفمن كان على بيّنة من ربه، ويكون قوله : ومن يكفر به من الأحزاب ... الخ راجعا (لمقدر) كمن ليس كذلك، فهو لَفّ ونشر مرتَّب "(5) . ويرى الزمخشري : " أفمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بيّنة "(6) .

وفي الآية الكريمة تشبيهان : أولهما : تشبيه سلبي بين (من كان على بيّنة)، و (من كان على ضلال)، أي لا يستويان، وحاصل التشبيه السلبي أنّ التشبيه واقع خارج القرآن عند من يسوّي بين الطرفين، وهو في القرآن العظيم مستفيض، وسرّ التشبيه السلبي البلاغي هو نفي الوجه المدعى الاشتراك فيه بين الطرفين، والمشبه فيه هنا هو (من كان على بيّنة) وهو طرف معنوي، والمشبه به محذوف كما قلنا سابقا، ولكن الأولى أن يقدّر (كمن هو في ضلال)، لأنّ المحذوف ينبغي أن يكون من مضادات المذكور، وهو : (أفمن كان على بيّنة) ويناسبه أن يكون المحذوف : (كمن كان في ضلال) .

وثانيهما : تشبيه كتاب موسى وهو مفرد معنوي، لأنّ المراد منه ما فيه من هدي وتوجيه، والمشبه به (إماما) وهو مؤكّد لحذف الأداة، ومجمل لحذف وجه الشبه، فهو تشبيه بليغ والمشبه به مفرد حسي، والغرض منه هو بيان الحال كما ذكرنا سابقا . وقوله : (ومن قبله) يلائم المشبه به، فإنّ من صفات الإمام أن يكون سابقا، وقوله : (إماما) يقارب قوله : (على بيّنة)، لأنّ من له إمام كان على بيّنة، ولما كانت الإمامة رمز الجماعة، وفي الجماعة رحمة، وفي الفرقة عذاب، عطف قوله : (ورحمة) على قوله : (إماما)، ولو قال : (أفمن كان على بيّنة من ربه ... ومن قبله كتاب موسى نورا ورحمة) ما وافق قوله : (على بيّنة) لأنّ البيّنة نور معنوي، ولو قال : (نورا) لعدّ تكرارا غير محمود، ونجد معنى الإمامة قبل التشبيه واضحا، فهذا النبيّ والمؤمنون على بيّنة، والإمام يكون على بيّنة، ثم قال بعد ذلك : " ويتلوه شاهد منه أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه، قال ابن عباس : وهو جبريل . عليه السّلام . "(7) .

3. الاستعارية ودلالاتها المقامية :

الاستعارة هي أحد أبواب علم البيان تعددت مفاهيمها في مواضع شتى من مؤلفات علم البلاغة، منها : أنّ الاستعارة في اللغة مشتقة من الفعل (عَوَرَ)، يقال : " استعار ثوبا فأعاره إيّاه، ومنها قولهم : (كير مستعار)، وقد قيل : مستعار بمعنى متعاور، أو متداول "(8) .

وفي الاصطلاح هي : صورة بيانية، وهي : " أفضل المجاز، وأول أبواب البيان، وليس في حلّي الشّعْر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها "(9)، أو هي : " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللّغة إلى غيره لغرض "(10)، أو هي : " استعمال اللفظ في

غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نقلت إليه، مع وجود قرينة مانعة من إيراد المعنى الأصلي⁽¹¹⁾، وكذلك " هي : التشبيه المضمر في النفس، المحذوف منه المشبه به الذي استعير للمشبه، ثم رمز إليه بشيء من لوازمه، وأسندت للمشبه " (12).

وللاستعارة كما هو معلوم أنواع وأقسام، منها الاستعارة التصريحية الأصلية، وهي . عند البلاغيين . أن اللفظ المستعار إذا كان اسماً جامداً بنوعيه، أطلقوا على التعبير مفهوم الاستعارة الأصلية، ومن أمثلتها الواردة في سورة هود . عليه السلام . قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾⁽¹³⁾ . فالسبيل مستعار (للذين وحققه) بجامع الوضوح، فالذين يصف منهجها بيناً، والسبيل هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه، بين واضح المعالم، فأطلق السبيل للذين الحنيف على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وهناك الاستعارة التبعية في السورة، حيث إن . كما قرّر البلاغيون . اللفظ المستعار إذا كان فعلاً أو مشتقاً أو حرفاً، كان تحت مصلح الاستعارة التبعية، لأنّ إجراء الاستعارة فيها تابع لإجرائه في أمور كليّة تابعة لها، كما هو الحال في التبعية في الأفعال حيث إنّ فقه دلالتها تابع لفقه دلالة الاستعارة في مصادرها، إذ هي المقصودة إثباتاً ونفياً ...، والتصرف المجازي في الأفعال يكون في الحدث والزمان⁽¹⁴⁾ .

فالاستعارة في الحدث (الاستعارة التبعية في الفعل) في مواطن كثيرة في السورة نذكر منها : قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾⁽¹⁵⁾ ، فالاستعارة هنا في الفعلين (أحكمت، فصلت)، حيث شبه آيات الكتاب بالبناء المحكم المتقن فلا تناقض فيه، ثم استعار المصدر وهو الإحكام والتفصيل للقرآن الكريم، ثم اشتقّ منها الفعل (أحكم، وفصّل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . كما وقد ذكر المفسّرون وجوهاً أربعة في معنى الإحكام والتفصيل، أرجحها للإحكام قولهم : " أن يكون مستعاراً من إحكام البناء وإتقانه، فلا يكون فيه تناقض أو تخالف للواقع والحكمة، أو ما يخلّ بالفصاحة والبلاغة ؛ وأمّا التفصيل بمعنى أنّها فرّقت بين الحق والباطل، فهي استعارة من العقد المفصّل بفرائده أي كباره التي تكون بين اللآلئ، فشبهت الآيات بعقد فيه لآلئ وغيرها لتغاير النفائس فيها لما اشتملت عليها، أي قصص وأحكام ومواعظ " (16)

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن يقال في أجزاء الاستعارة شبه الانقياد الكامل، وهو خشوعهم واستقرار قلوبهم بالمطمئن من الأرض بجامع السهولة واليسر، ثم اشتقّ من الإخبات بمعنى الاستقرار في الفعل (أخبت) بمعنى استقرّ على سبيل الاستعارة التبعية .

والاستعارة في الزمن (الاستعارة التبعية في زمن الفعل)، والزمن هو أحد مدلولي الفعل، والزمن الذي يدلّ عليه الفعل قد يكون ماضياً، أو مضارعياً، وإنّ الاستعارة إذا وقعت في الفعل

باعتبار حدثه، فإنها تقع فيه باعتبار زمانه، فيعبر بالماضي عن المستقبل إفادة لتحقيق الوقوع، أو التعبير بالمضارع عن الماضي استحضارا لهيئة حال ماضيه⁽¹⁷⁾، وجاءت هذه الاستعارة في مثل قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾⁽¹⁸⁾، حيث عبر بالماضي عن المستقبل الذي سيحدث فيه الورد للمبالغة في تحقق وقوع الساعة، وأنها آتية لا ريب فيها.

أما الاستعارة التبعية في المشتقات فهي تجري لجريانها في المصادر، لأن الصفات متجددة غير ثابتة بسبب عروض الزمان لها ... وإنما يصلح للموصوفية . التي هي مقتضى التشبيه . الحقائق، أي : الأمور المتقررة الثابتة دون معاني الصفات المشتقة من الأفعال⁽¹⁹⁾ .

وجاءت الاستعارة في المشتقات في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾⁽²⁰⁾، فالاستعارة التبعية هنا في المشتق (غليظ)، حيث استعار الغلظ لشدة العذاب بجامع قوة التأثير في كل منهما على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. ومنه قوله تعالى : ﴿...وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾⁽²¹⁾، حيث شبه ثقل اليوم وامتداده بالجرم الكبير بجامع شدة الوطأة في كل منهما تصويرا للمعنويات في صورة الحسيات اعتناء بالمقام وسياقه، وزيادة تقرير وتوضيح للمعنى المراد .

كما ونجد في السورة بما يسمى بالاستعارة التهكمية، حيث جاء التصوير بها على لسان قوم شعيب . عليه السلام . في قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽²²⁾، ففي قولهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ استعارة تهكمية، والعلاقة هي التضاد، كقولنا لبخيل : حاتم في المجلس، وللغي : سحبان يتحدث .

أما الاستعارة التمثيلية وهي : " اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، أي : تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه به مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه"⁽²³⁾ .

وقد خصت الاستعارة المركبة بلفظي التمثيل أو التمثيلية مع أن في كل استعارة تمثيلا أي تشبيها مبالغة في التنويه بشأنها حتى كان ما عداها ليس فيه تمثيل⁽²⁴⁾ .

ومما ورد منها قوله تعالى : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽²⁵⁾، حيث مثلت سيطرة الله على العباد وتمكّنه وتصريفه لهم، وخضوعهم جميعا لإرادته، بصورة من يأخذ بالنواصي في هيئة متمكنة لا يفلت منها شيء . والناصية في الأصل " ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس حذو الجبهة "⁽²⁶⁾، فإن السياق المقامي اقتضى بروز

المعنى والمبنى على هذا النحو، حتى تتمثله الأذهان فتحدث الهيبة في النفوس، لأن قوم هود . عليه السلام . أظهروا من الافتراء والاعتداد بقوتهم وقوة آلهتهم ما جعل هودا . عليه السلام . يعلن براءته منهم، وكان من قبل يستميلهم، فقال يتحداهم : ﴿ إِنِّي بريء مما تشركون من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾، وكان يستند في استهانتهم بهم إلى الله، ويتوكل عليه ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ فلما كان تحديه لهم، وهو فرد وهم جماعة مظنة السؤال عن هذا الرب الذي يستند إليه، ويحتمي به، كان هذا التمثيل المبين لقدرة الله وسيطرته وتصريفه ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾⁽²⁷⁾. وحين ردّ نوح . عليه السلام . على قومه بقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... ﴾⁽²⁸⁾، جاء التصوير بالاستعارة التمثيلية، لأنه أراد بخزائن الله ملكوت السماوات والأرض ورزق الله وماله عندي، فقد مثلت ملكوت الله للسماوات والأرض، وحفظه لهما .

أما الاستعارة المكنية، وهي عند البلاغيين : هي لفظ المشبه به المحذوف، الذي استعير في النفس للمشبه والمدلول عليه، بإثبات شيء من لوازمه للمشبه⁽²⁹⁾، ومنها قوله تعالى تصويراً لحالة الإنسان وقد أصبح في صحّة وأمن بعد أن كان عليلاً : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾⁽³⁰⁾، ففي قوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ استعارة مكنية مبنية على تشبيه السيئات بكائن له عقل يذهب ويحيى، وحذف المشبه به، وأثبت لازمة من لوازمه وهي الفعل (ذهب)، وفي هذا تصوير (للسيئات) بصورة محسوسة .

وجاء التصوير بالاستعارة المكنية في وصف الظالمين الذين افتروا على الله الكذب في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾⁽³¹⁾، حيث أطلق العوج وهو من صفات الأجساد على الأمور المعقولة، فبنيت الاستعارة فيه على تشبيه الهدى المعنوي بالطريق المحسوس، وحذف المشبه به، ورمز له بعوج لأنها من خواص المشبه به .

كما نلمح قوة التصوير البياني بالاستعارة المكنية في التعبير القرآني عن وضع ابن نوح . عليه السلام . في قوله تعالى : ﴿ ... قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾⁽³²⁾، ففي قوله : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ استعارة مكنية، لأنه شبه الموج بفاعل له إرادة ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الحيلولة على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن خلال دراستنا للاستعارة بأنواعها في سورة هود نلاحظ أنها تأتي كلّ واحدة منها بالصورة الفنية الاستعارية على حسب ما يمليه عليها المقام، فلا يمكن أن تأتي مثلاً الاستعارة التصريحية أو المكنية في مقام لا يصلح فيه إلا الاستعارة التمثيلية، وكذلك العكس، فالمقام هو الذي يستدعي هذه الاستعارة دون غيرها .

4. المجاز المرسل ودلالته المقامية :

عرّفه البلاغيون بقولهم : " هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إيراد المعنى الحقيقي " (33).

ومما جاء منه في سورة هود . عليه السّلام . من العلاقات :

المكانية : وتحققت هذه العلاقة في السّورة في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (34). أي يستوي بالنسبة إلى الله لعلمه المحيط سرهم وعلّهم، فكيف يخفى عليه ما يظهرون من أفواههم، وفيه من التأكيد والمبالغة في الأخبار بإحاطة علمه بالظاهر والباطن فهذا المقام جاء ليستدعي مجازا مرسلا علاقته المكانية، حيث أطلق (الصّدور) وأراد به ما يضمّر في القلوب، والعلن ما يصدر عن الفم من أقوال ظاهرة .

الزمانية : وتحقق هذه العلاقة في السّورة في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَمْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (35). المجاز في لفظ (القرون) حيث أطلق وأريد بها من كان يعيش فيها، وهذا البناء التركيبي جاء في مقام التعبير بالقرون مبالغة في إنذارهم بالعذاب الذي حلّ بمن قبلهم في الأزمنة الماضية، وما فيه من معنى التفجّع والتأسّف لحالهم، ولاعتبار هؤلاء القوم من مصيرهم .

الإطلاق والتقييد : أمثلته في السّورة كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿ ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (36) . حيث أطلق الاستفهام من قيده وهو الاستعمال في الحقيقة، ثم قيده في الأمر، فهو مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد، فجاء هذا التركيب استدعاء لمقام التطريّة والتلين في الخطاب .

ومن خلال هذه اللمحة البسيطة عن المجاز المرسل وعلاقاته في سورة هود . عليه السّلام . . نلاحظ أنّه تأتي كلّ واحدة منها في المقام المناسب لها، فلا يمكن أن تأتي العلاقة الزمانية في مقام يستدعي العلاقة المكانية، وهكذا ...، فالمقام هو الذي يستدعي هذه العلاقة دون غيرها .

5. المجاز العقلي ودلالته المقامية :

المجاز العقلي هو : " إسناد الفعل أو معناه إلى غير ما هو له لعلاقة، مع وجود قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي " (37).

ازدانت سورة هود . عليه السّلام . بهذا النوع من المجاز كما ازدانت بالصّور الفنيّة الأخرى، استخدم لعلاقات متعدّدة فرضها عليه المقام الذي يتواجد فيه، من أمثلته في هذه السّورة نذكر :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾⁽³⁸⁾. فقد جاءت العلاقة هنا زمانية، والمقصود بها " مشابهة المسند إليه المجازي للمسند إليه الحقيقي في ملابسة الفعل، لأنه زمانه لوقوعه فيه "⁽³⁹⁾ فقد أسند العذاب إلى اليوم، وهو يوم القيامة، لأنّ هذا اليوم هو زمان العذاب، وأصل التركيب الحقيقي : (يوم كبير هوله وعذابه)، والقرينة الاستحالة العقلية أن يوصف الزمان بأنه كبير، وإنّما الذي يوصف بذلك هو الهول، والعذاب الشّدِيد الواقع فيه ذلك اليوم، ومن ناحية أخرى فقد وصف اليوم بالكبير، " لكبر ما فيه من العذاب ممّن قدر على إثباتكم "⁽⁴⁰⁾.

وكذلك نجد العلاقة الزمانية للمجاز العقلي في (عَصِيبٌ)، في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾⁽⁴¹⁾ فالعلاقة في هذا المجاز زمانية كذلك، فأصل التركيب الحقيقي : (يوم عصيب هوله وعذابه)، والقرينة : الاستحالة العقلية أن يوصف الزمان بأنه عصيب، وإنّما الذي يوصف بذلك هو الهول والعذاب الشّدِيد الواقع في ذلك اليوم؛ والمعنى : (يوم عصيب شديد شرّه وهوله الذي سيقع فيه) .

وهذا الإسناد " مجاز عقلي، قال نوح هذه العبارة في نفسه لما يعلم من سوء أخلاق قومه "⁽⁴²⁾، والعصيب : الشّدِيد الذي يعصب الناس بالشرّ؛ ومنه قول الشاعر :

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الْأَبْطَالَ عَصَبَ الْقَوِيِّ السَّلَمَ الطَّوَالَا⁽⁴³⁾

وكذلك المجاز العقلي في : (مُحِيطٌ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾⁽⁴⁴⁾ حيث " أسند الإحاطة لليوم مع أنّ اليوم ليس بجسم باعتبار أنّ العذاب يكون فيه، فهو إسناد للزمان "⁽⁴⁵⁾.

ومعنى ذلك أنّ العلاقة في المجاز العقلي زمانية، وأصل التركيب الحقيقي : (يوم محيط هوله وعذابه)، والقرينة : الاستحالة العقلية أن يوصف الزمان بأنه محيط، وإنّما الذي يوصف بذلك هو الهول الشّدِيد، والعذاب المحيط بهم في ذلك اليوم، لكن وصف اليوم بالمحيط، فيه مبالغة كبيرة، وذلك لأنّه " محيط بما فيه من عذاب وغيره، والعذاب محيط بالمعدّب، فذكر المحيط بالمحيط أهول، وهو الدائر بالشيء من كلّ جانب "⁽⁴⁶⁾.

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾⁽⁴⁷⁾ فقوله : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ مجاز عقلي حيث " أسند اسم الفاعل (عاصم) إلى المفعول، بمعنى : لا معصوم ومحفوظ من الغرق إلّا الذي رحمه الله ونجّاه، على طريق المجاز العقلي الذي علاقته المفعولية، وقرينته الاستحالة

العقلية، لأنَّ الإنسان معصوم لا عاصم، إذ العاصم والحافظ من الغرق هو الله القويُّ القادر، وفيها خذلان الضَّالِّين، والتهكُّم من الكافرين المعاندين⁽⁴⁸⁾. فلننظر كيف تغيَّر بناء الجملة من تركيب إلى آخر ليتناسب والمقام الذي قيل فيه، عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته المفعولية هنا .

ومن خلال هذا نلاحظ أنَّ المجاز العقلي بعلاقاته المتعددة في سورة هود . عليه السَّلام . أتى في سياقات متعددة بعلاقاته المختلفة، كلّ واحدة منها في السِّياق المقامي المناسب لها، فلا يمكن أن تأتي العلاقة الزمانية في مقام يستدعي العلاقة السَّببية، ولا يمكن أن تكون السَّببية في مقام يستدعي المكانية، فالسِّياق المقامي هو الذي يستدعي هذه العلاقة دون غيرها، فيأتي البناء التراكبي للجملة على حسب هذا الاستدعاء أو ذاك .

6. الكناية ودلالاتها المقامية :

الكناية من أساليب البيان التي لا يقوى عليها إلّا كل بليغ متمرّس بفنِّ القول، وهي " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ "⁽⁴⁹⁾ .

وتنقسم الكناية باعتبار المكني عنه إلى ثلاثة أقسام : كناية عن صفة، كناية عن موصوف، كناية عن نسبة، يقول السَّكاكي و" المطلوب بالكناية لا يخرج عن أقسام ثلاثة، أحدها : طلب نفس الموصوف، وثانيها : طلب نفس الصِّفة، وثالثها : تخصيص الصِّفة بالموصوف "⁽⁵⁰⁾ .

وقد جاءت الكناية في سورة هود . عليه السَّلام . منساقة للمقام الذي يفرضه وجودها في التركيب بنوع منها دون آخر، منها ما جاء كناية عن موصوف مثل :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾⁽⁵¹⁾، فهي كناية عن موصوف في الردّ على نوح . عليه السَّلام . أي : إنّي أنهيك وأنصحك لئلا تكون من الجاهلين، فقد كَتَّى بالجهل عن الذنب لتجنّب مواجهة نوح . عليه السَّلام . فقد فهم المقصود من جواب نوح . عليه السَّلام . حين قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾⁽⁵²⁾، وإنّما كَتَّى عن الذنب بالجهل خاصة للتنبيه على الباعث على الذنب، توصّلا إلى التنفير منه وتجنّبه على ما فيه من الإشارة إلى ما أدّى إليه غلبة عاطفة الأبوة على عاطفة الدِّين⁽⁵³⁾ .

كما نجد الكناية مقرونة بدليلها في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾⁽⁵⁴⁾، يقول الزمخشري : " (طرفي النهار) : غدوة وعشوة، و(زلفا من الليل) : ساعات من الليل، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ... و(صلاة الغدوة) : الفجر، و(صلاة العشية) : الظهر والعصر، لأنّ ما بعد الزَّوال عشيّ، و(صلاة الزلف) : المغرب والعشاء "⁽⁵⁵⁾، ففي الآية كنايات عن الأوقات السَّالفة الذكر .

أما الكناية عن صفة فقد جاءت في مواطن كثير في السّورة، تابعة لمقاماتها، منها :

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾⁽⁵⁶⁾ . حيث حوت هذه الآية كنايتين : الأولى : جاءت في قوله : ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كناية عن تجرّدهم من كلّ فضل، وهذه الكناية من أبلغ الكنايات، فهي تبين خيبة الأمل وسوء المصير، لأنّ الخسارة وجهت للذّات نفسها، فمن خسر نفسه خسر ما عداها . والثانية : في قوله ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي ما كانوا يزعمون من أنّ الأصنام تشفع لهم، فقد كنى بالضلال عن الحيرة والقلق يوم القيامة، وفي هذا تصوير لهم عن خيبتهم وانقطاع أملهم .

وأخيرا ومن خلال تتبعنا للصور الكنائية في سورة هود . عليه السّلام . نرى أنّها لم تأت بهذا النسق وبهذه البنائية في التركيب عبثا، بل كان للمقام الذي قيلت فيه دور فعّال في ذلك .

7. خاتمة :

بعد هذه الرحلة الشّيقة والماتعة مع التصوير الفني في سورة هود . عليه السّلام . ودلالاته المقامية تتّضح لنا النتائج الآتية :

- كلّ صورة تشبيهية تأتي على حسب ما يمليه عليها المقام، فلا يمكن أن يأتي التشبيه الضمني في مقام التشبيه البليغ فالمقام هو الذي يستدعي هذه الصورة التشبيهية دون الأخرى .
- كلّ استعارة تأتي على حسب ما يمليه عليها المقام، فلا يمكن أن تأتي الاستعارة التصريحية في مقام الاستعارة التمثيلية فالمقام هو الذي يستدعي هذه الاستعارة دون غيرها .
- تأتي كلّ علاقة في المجاز المرسل في المقام المناسب لها، فلا يمكن أن تأتي العلاقة الزمانية في مقام العلاقة المكانية فالمقام هو الذي يستوجب هذه العلاقة أو تلك .
- أتى المجاز العقلي بعلاقاته المتعدّدة في سورة هود . عليه السّلام . في سياقات متعدّدة بعلاقاته المختلفة، كلّ واحدة منها في المقام المناسب لها، فالمقام هو الذي يستدعي هذه العلاقة أو تلك دون سواها .
- كلّ كناية تأتي على حسب ما يمليه عليها المقام، فلا يمكن أن تأتي مثلا الكناية عن صفة في مقام يستدعي الكناية عن موصوف، فالمقام هو المحدّد لهذه أو تلك .

الهوامش :

- (1) محمد قطب عبد العال، (1415 هـ)، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، الشركة السعودية للتوزيع، (الرياض)، دط، ص 7.
- (2) ابن رشيقي القيرواني، (1383 هـ)، العمدة في محاسن الشَّعر وأدابه ونقده، تح : محمد محي الدِّين عبد الحميد، مطبعة السَّعادة، (القاهرة)، دط، ج 2، ص 286.
- والخطيب القزويني، (1985 م)، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، شرح وتعليق : عبد المنعم خفَّاحي، دار الكتاب اللبناني، (بيروت)، ط 6، ص 86.
- (3) سورة هود، الآية : 17.
- (4) ابن كثير، (1388 هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت)، دط، ج 2، ص 440.
- (5) سليمان بن عمر العجيلي الشافعي، الفتوحات الإلهية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، (مصر)، دط، دت، ج 2، ص 388.
- (6) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دت، الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، دار المعرفة، (بيروت)، دط، ج 2، ص 262.
- (7) محمد علي الصابوني، (1998 م)، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط 1، ج 12، ص 10.
- (8) إسماعيل بن حماد الجواهري، (1987 م)، الصَّحاح تاج اللغة وصحَّاح العربية، تح : أحمد عبد الرؤوف عطار، دار العلم للملايين، (بيروت)، ط 4، ج 2، ص 761.
- (9) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ج 1، ص 268.
- (10) أبو هلال العسكري، دت، الصِّناعتين : الكتابة والشعر، تح : محمد البجاوي أبو الفضل، عيسى البابي وشركاؤه، (القاهرة)، دط، ص 259.
- (11) محمد شعبان علوان، (1998 م)، من بلاغة القرآن، الدار العربية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، دط، ص 214.
- (12) أحمد مطلوب، (1983 م)، معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، دط، ص 99.
- (13) سورة هود، الآية : 19.
- (14) ينظر : السعد، (1315 هـ)، حاشية البناني على مختصر المعاني، المطبعة العلمية، (مصر)، ط 1، ج 2، ص (177، 176).
- (15) سورة هود، الآية : 1.
- (16) ينظر : محي الدِّين شيخ زاده، دت، حاشية محي الدِّين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، دار صادر، (بيروت)، دط، ج 5، ص 17.
- (17) ينظر : عبد الحافظ إبراهيم البقري، دت، علم البيان، دط، ص 153.

- (18) سورة هود، الآية : 98 .
- (19) ينظر: سعد الدين التفتازاني، (1330هـ)، المطوّل على التلخيص، مطبعة أحمد كامل، دط، ص 372 .
- (20) سورة هود، الآية : 58 .
- (21) سورة هود، الآية : 3 .
- (22) سورة هود، الآية : 87 .
- (23) عبد المتعال الصعيدي، دت، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب ومطبعها بالجماميز، دط، ج3، ص (130، 131) .
- (24) ينظر: محمد الصّبّان، (1315هـ)، الرسالة البيانية، المطبعة الأميرية، ط1، ص 466 .
- (25) سورة هود، الآية : 56 .
- (26) مجمع اللغة العربية، (1970م)، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (مصر)، ط2، ج2، ص 533 .
- (27) ينظر: حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ج3، ص 50 .
- (28) سورة هود، الآية : 31 .
- (29) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج3، ص (35، 36) .
- (30) سورة هود، الآية : 10 .
- (31) سورة هود، الآية : 19 .
- (32) سورة هود، الآية : 43 .
- (33) عبد الرحمن الكردي، (1976م)، نظرات في البيان، مطبعة السعادة، (القاهرة)، ط3، ص 224 .
- (34) سورة هود، الآية : 5 .
- (35) سورة هود، الآية : 116 .
- (36) سورة هود، الآية : 14 .
- (37) من بلاغة القرآن، ص 199 .
- (38) سورة هود، الآية : 3 .
- (39) محمد رمضان الجري، (1998م)، البلاغة التطبيقية دراسة تحليلية لعلم البيان، منشورات جامعة ناصر، (الجماهيرية العظمى)، ط1، ص 194 .
- (40) البقاعي، (1413هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة)، ط2، ج2، ص 500 .
- (41) سورة هود، الآية : 77 .
- (42) إبراهيم عبد الله رفيعة وآخرون، (1983م)، معاني القرآن الكريم، جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، (طرابلس)، ط1، ج2، ص 284 .
- (43) ينظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي، دت، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، (بيروت)، ط1، ج4، ص 136 .
- (44) سورة هود، الآية : 84 .

- (45) صفوة التفاسير، ج2، ص30 .
- (46) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج3، ص564 .
- (47) سورة هود، الآية : 43 .
- (48) البلاغة التطبيقية . دراسة تحليلية لعلم البيان، ص193 .
- (49) الإيضاح في علوم البلاغة، ص456 .
- (50) أبو يعقوب يوسف محمد بن علي السكاكي، (1983م)، مفتاح العلوم، تع : نعيم زرزور، دارالكتب العلمية، (بيروت)، ط1، ص403 .
- (51) سورة هود، الآية : 46 .
- (52) سورة هود، الآية : 47 .
- (53) ينظر: محمد إبراهيم شادي، (1984م)، الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية، رسالة جامعية مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف الدكتور عبد الرحمن الكردي، ص297 .
- (54) سورة هود، الآية : 114 .
- (55) الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج2، ص297 .
- (56) سورة هود، الآية : 21 .